أوجست رِنْوَار

العذاب من أجل الجمال

بقلم: فايز فرح

دار المعارف

إلى ضيف أسرتى وامتداد رحلتى
نبيـــل عـــادل واصـــف
وأمنيـات عظيمـة بمستقبـل سعيـد

فايز فرح

تصميم الغلاف : **محمد أبو طالب**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إعداد فنى : عبد الله عبد العزيز

على الرغم من المرض والألم ، فإننى أسعد حظًّا من زميلى الفنان « ديجا » الذى فقد بصره ، حقيقة أننى أتألم من شدة المرض وأنا أرسم ، عزائى الوحيد هو أننى أشارك فى صنع الجمال الذى لا يموت .

أوجست رنـوار

طفولة موهوبة

يولد العباقرة أحيانًا ومواهبهم واضحة تفرض عليهم نفسها وهم فى عمر الزهور ، بل فى سن الطفولة ، فإذا استجابوا لها وأعدوا أنفسهم للتخصص والدراسة فى مجال موهبتهم ، فمستقبلهم مشرق ، وعبقريتهم متألقة بلا جدال ، وفى سنوات قليلة ، فمن العباقرة الذين اكتشفوا موهبتهم فى سن متأخرة ، الفنان الهولندى « فان جوخ » ، الرسام البارع الذى وصلت أسعار لوحاته فى العصر الحديث إلى عشرين مليون دولار فى اللوحة الواحدة وأكثر ، وقد اكتشف موهبته وهو فى الثلاثينات من عمره ، فما بالك لو اكتشفها وهو طفل صغير ! – أما الذين اكتشفوا مواهبهم منذ نعومة أظفارهم ، وتألقوا فى طفولتهم ،

فمنهم الموسيقار النمساوى المعروف « موتسارت » الذى كان يؤلف قطعًا موسيقية من وحيه وهو فى الرابعة من عمره ، وقبل أن يصل إلى السادسة عشرة كتب حوالى عشرين سيمفونية .

ومن هؤلاء العباقرة الذين اهتموا بمواهبهم فى سن الطفولة الفنان الفرنسى المعروف « رينوار » الذى تعددت مواهبه ، فهو يميل إلى الموسيقى ، وصاحب صوت جميل معبر جعله « السوليست » أى المنشد الأول فى فريق الكورال الكنسى ، وهو يميل إلى الرسم بل يبدع رسومات جذبت انتباه مدرسه ، هو طفل لديه أكثر من موهبة ، ويقرر الطفل فى سن مبكرة أن يكون رسامًا فى المستقبل ، فهو يملك شخصية قوية من صغره ، هذه القوة هى التى أوصلته إلى المجد والشهرة ، بجانب موهبته ودراسته ، وهى التى جعلته يتحدى قدره عندما أصيب بالشلل ، فأخذ يرسم ويبدع على الرغم من المرض والألم .

ولد الفنان « بيير أوجست رنوار » فى الخامس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨٤١ بمدينة « ليموج » الفرنسية ، فى أسرة متوسطة الحال ، تميل إلى الفقر أكثر من الغنى ، كان

والده يعمل خياطا ، وكذلك كان حال والدته وجده ، أما إخوته فكان عددهم خمسة ، وعلى الرغم من فقر الأسرة إلا أنها كانت على شيء من الذوق الرفيع .

كان « رنوار » كثيرًا ما يرافق والدته فى نزهاتها فى غابات « لوفسين » ، حيث كان تلفت نظره إلى مواطن الجمال فى الطبيعة الفنية الرائعة ، وبذلك غرست فى قلبه وروحه بذرة الفن وحب الجمال منذ الطفولة ، وقد ساعده ذلك فى مستقبل حياته على عشق الجمال ومحاولة إبداعه ، وفى سنة ١٨٤٥ انتقلت الأسرة إلى العاصمة باريس ، وكان من حسن حظ هذا الطفل أن يأتى إلى العاصمة وعمره لم يتخط الرابعة ، فقد أرسلته الأسرة إلى المدرسة ، وهناك تفجرت مواهبه المتعددة .

فهذا الرسام « جلبير » يكتشف فى الطفل رساما واعدًا ، ولكنه يرسم العالم الذى يتمناه ، لا الأشياء كما هى ، فيناقشه فى رسمه : لماذا ترسم ؟ فيجيب الطفل صاحب الشخصية القوية والموهبة الواضحة : أرسم لكى أشعر بالسعادة ..

وهل ترسم لتسعد نفسك وحسب ؟ ، نعم – وإذا لم أجد فى الرسم أسباب سعادتى ، لما امتدت يدى بفرشاة على لوحة .

وذاك مدرس الموسيقى « شارل غونو » يكتشف فى الطفل

« رنوار » صوتًا جميلاً معبرًا ، فيشجعه على الغناء ضمن كورال الكنيسة ، وتدفعه موهبته إلى التألق فيصبح المنشد الأول فى الكورال « السوليست » ، ويتوقع المدرس له مستقبلاً باهرًا فى مجال الغناء .

لم يهتم « رينوار » بالموسيقى والغناء قدر اهتمامه بالرسم والألوان واللوحات ، واختار وهو فى هذه السن الصغيرة أن يتخصص فى الرسم ، ويعيش مع عالم التشكيل ، وبدأ رحلته بالعمل فى مصنع للقيشانى كرسام على الأوانى ، كان عمره وقتذاك الثالثة عشرة ، واضطر للعمل حتى يكسب رزقه بنفسه ، ويساعد والده الذى قست عليه الحياة ، فعانى من الفقر وضيق اليد ، وفى المصنع كان يرسم على الأوانى والأطباق الزهور والورود ، وثمار الفاكهة ، والحوريات والمناظر الطبيعية المتباينة الجميلة ، كانت رسوماته أجمل من الواقع ، فهو يحب الجمال ويضيف إليه من عنده ما يزيده حتى يشبع حب الجمال عند كل من يشاهد هذه الأطباق والأوانى ، وبعد انتشار الآلات ، تدهور حال المصنع حتى توقف تمامًا عن العمل ، ووجد « رنوار » نفسه بلا عمل ، فأخذ يبحث عن عمل آخر يقتات منه ، وانتشرت فى ذاك الوقت مودة مراوح السيدات المزخرفة

برسومات يدوية جميلة ، وهذه هى هوايته المفضلة ، فأخذ يزخرف المراوح ويرسم عليها المناظر الطبيعية والزهور ، وبعض وجوه الشخصيات المعروفة كـ « مارى أنطوانيت » وغيرها ، واستطاع أن يحقق ربحًا كبيرًا من هذا العمل .

كان العمل بالنسبة للفنان الصغير « رنوار » ضرورة من أجل لقمة العيش ، ومساعدة والده وإخوته ، وأيضًا لهدف أساسى هو استكمال دراسته الفنية ، فهو يملك الموهبة القوية الواضحة ، لكنه رأى أن يغذى هذه الموهبة بالدراسة الفنية والأكاديمية حتى يصقلها ويبرع فى تخصصه وفنه الذى اختاره منذ نعومة أظفاره ليكون فنانًا مبدعًا ، وليس مجرد فنان موهوب ، وحتى يحقق ذلك لابد أن يوفر بعض المال للدراسة .

لم يترك « رنوار » أى فرصة للتعلم وإتقان موهبته إلا وطرقها ، فهو يبحث عن عمل ، ولكنه يختار العمل الذى يتفق وهوايته فى الرسم ويوفر مالاً ، حتى يستطيع الالتحاق بمدرسة الفنون ، ودراسة الفن دراسة علمية ، كذلك كان يذهب فى أوقات فراغه لزيارة متاحف الفن ، ومشاهدة أعمال الفنانين العالميين ، وكان يقضى فى متحف « اللوفر » فى باريس أغلب أوقات فراغه يتأمل

أعمال الفنانين : (واتو – وبوشيه فرانسوا – وبرودون بيير – و .. رافاييل .. و .. رمبرانت . وجوستاف كوربييه و .. ميكل أنجلو .. و .. ليوناردو دافنشى .. و .. بنتوريكو .. و .. وفيجيه لبران .. وفراجونار) ، واستفاد الصبى من أعمال سابقيه حتى قال : « المتحف هو المكان الذى يتعلم فيه الفنان الرسم ، فبين جدرانه ينمو إحساس الفنان بالرسم على نحو لا تيسره له الطبيعة وحدها » .

بعد عمله فى زخرفة ورسم مراوح السيدات أخذ الصبى « رنوار » يبحث عن مجال عمل جديد يرتزق منه ، وبينما كان يجول فى الشوارع بحثًا عن عمل ، إذ به يقترب من أحد المقاهى ، ويتطرق إلى سمعه مشادة كلامية ، ومناقشة حادة بين صاحب المقهى وأحد العاملين فى الطلاء وتزيين الحوائط ، كان الأول قد اتفق مع الثانى على طلاء وتزيين جدران المقهى بالمناظر الجميلة حتى يقبل عليها الجمهور ، ولكن العامل طلب مبلغًا كبيرًا لم يوافق عليه صاحب المقهى ، ومن هنا نشأت المشادة الكلامية ، وارتفعت أصوات النقاش حتى وصلت إلى أذن « رنوار » ، وبعد أن غضب العامل ولم يوافق على المبلغ انصرف ، فوجد الصبى « رنوار » الفرصة فى أن يقترب من

صاحب المقهى ويعرض عليه أن يقوم بنفس العمل بمبلغ زهيد ، فوافق صاحب المقهى على الفور ، وبخاصة أنه كان منفعلاً وغاضبًا بعد المشادة .

وشعر الفنان الصغير بسعادة كبيرة ،لأنه وجد عملاً يعيش من دخله ، ويساعد والده ، ويدخر منه جزءًا لاستكمال دراسته الفنية ، ولأن هذا العمل يتفق مع هوايته وموهبته فى الرسم ، ولكنه وجد صعوبة فى هذه التجربة الفنية ، فلأول مرة يرسم على حائط كبير ، ولابد لرسمه أن يملأه ، وهو لم يتعود على ذلك من قبل ، وكان مصدر خوفه ألا يستطيع أن يتقن النسب بين ما يرسمه ، ولكنه كالعادة خاض التجربة بشىء من الثقة بالنفس ، وبدأ الرسم على حائط المقهى ، وحتى يستطيع إتقان النسب وإخراج رسمه فى أجمل صورة ، كان يضع الخطوط الرئيسية على الحائط ثم يهبط على السلم لينظر إلى الحائط من أسفل ، ويصعد مرة ثانية حتى يرسم ، ثم يهبط ويصعد ، وهكذا حتى استطاع أن يحقق ما يريد ، وكانت حركته فى صعود السلم والهبوط المتكررة مصدر سعادة أفراد أسرة صاحب المقهى الذين التفوا حوله ، يشاهدون حركة الفنان وخفة يده فى الرسم والإبداع ، وفى خلال يومين كان

الفنان الصغير قد حول الحائط الأبيض إلى لوحات فنية رائعة ، فهذه فينوس إلهة الحب والجمال عند الرومان ، وتلك زهور يانعة تنظر إليها فتشعر أنك فى حديقة غناء ، وذاك جدول مياه يتدفق فتشعر بنسمات رقيقة تصافح وجهك مع أنه مجرد رسم جميل ، وانتشر اسم « رنوار » بعد ذلك بين أصحاب المقاهى ، وسارع كل منهم فى طلب طلاء وتزيين مقهاه ، فقد أقبل الناس على المقهى الذى رسمه « رنوار » ، يحتسون المرطبات ،ويتمتعون بالرسومات الجميلات ، فكانوا يشعرون أنهم يجلسون فى مقهى ومتحف فى آن واحد ، واستجاب صاحبنا لأصحاب المقاهى الأخرى ، فقام برسم وتزيين حوالى عشرين مقهى ، ولكن للأسف لم يبق من هذه اللوحات الجميلة على حوائط المقاهى أى أثر .

واستطاع الفنان « رنوار » أن يدخر جزءًا من دخله عن أعماله السابقة ، حتى يحقق حلم حياته فى دراسة الفن دراسة أكاديمية علمية ، تصقل شخصيته وتهذب موهبته وتدفعه إلى الأمام فى عالم الفن وفى مارس سنة ١٨٦٢ ، أى عندما وصل فناننا إلى الحادى والعشرين من عمره ، التحق بمدرسة الفنون الجميلة ، ليدرس فى القسم المسائى بها الرسم والتشريح ،

كما التحق فى شهر أكتوبر (بمعهد جلبير) ليأخذ دروسًا عملية فى ستوديو « شارل جلبير » الذى اكتشف موهبته عندما كان تلميذًا صغيرًا فى المدرسة .

وبدأت موهبة « رنوار » تصقل بفضل العلم وخبرة أساتذته فى مدرسة الفنون ، وأشبع رغبته الشديدة فى رسم الأجسام البشرية على اختلاف حجمها ومقاساتها وأشكالها وألوانها ، كان النظام يقضى بأن يرسم الموديل عشر مرات على الأقل حتى يتقنه ، وكان الموديل تجلس أمامه ليرسمها بدقة ، وقد استفاد كثيرًا بهذه الطريقة ، فالموديل هى امرأة يرسمها كما هى فيتعرف على نسب الجسم ومقاييسه وتكوينه ، تمامًا كما يدرس طالب الطب الجسم الإنسانى ومكوناته وعضلاته ومفاصله وكل دقائقه ، سواء كان هذا الجسم حيًا أو ميتًا ، حتى يستطيع من خلال دراسته التوصل إلى معرفة أسباب الأمراض المختلفة واكتشاف العلاج المناسب .

وقبل أن نترك طفولة « رنوار » تعال صديقى القارئ ، نقرأ ما كتبه ابنه المخرج السينمائى « جان رنوار » فى كتابه .. « رنوار أبى » : (جاءت ظروف ميلاد « رنوار » ونشأته فى عالم مضطرب ، شهد التطورات الاجتماعية والسياسية والمدنية فى

فترة ما بعد الثورة الصناعية ، وظهور الحركات الفكرية الأوربية ، التى كانت باريس حلبتها لتجعل منه إنسانًا مرهف الحس ، تتحسس عيناه ما يدور حوله لتترجمها روحه فى لغة مرهفة تخطها على القماش أصابعه الممسكة بالفرشاة) .

وقبل أن يترك الفنان « رنوار » مدرسة الفنون ، كان قد كون صداقة مع مجموعة من زملائه الفنانين الواعدين الثائرين ، الذين كانت لهم رؤية فنية جديدة ، من هؤلاء الزملاء : « كلود مونيه » و « بازيل ».و « بول سيزان » و « كاميل بيسارو » و « الفريد سيسلى » ، كانت تقاليد الرسم تقتضى بأن ترسم كل لوحة داخل الأستوديو ، حتى إذا كانت لوحة تحاكى الطبيعة وتعبر عنها ، ولكنَّ « رنوار » وزملاءه من شباب الفن ، قرروا الثورة على هذا الأسلوب « الكلاسيكى » القديم ، وخرجوا مع ربيع سنة ١٨٦٤ إلى الطبيعة ، إلى الغابات ، يتمتعون بربيع الطبيعة ، معبرين عن ربيع أعمارهم الذى يحتاج إلى الانطلاق فى حضن الطبيعة ، ويحتاج إلى الثورة على القديم وإثبات قدرتهم فى الابتكار والتجديد ، وبدأ « رنوار » ورفاقه الرسم عن الطبيعة مباشرة ، والتخلص من قيود الأستوديو وملله ، انطلقوا إلى الغابات والحدائق ونهر السين ، وشواطئ

البحار حبًّا فى الطبيعة ، وحتى يكون التأثير مباشرًا أثناء الرسم ، والانفعال حيًّا طازجًا ، وكان « رنوار » يتفوق على زملائه ، بحكم خبرته الطويلة فى الرسم ، والتى بدأها منذ نعومة أظفاره ، وأطلق النقاد على المدرسة الجديدة ، للرسم على الطبيعة ، والتى تزعمها « رنوار » وغيره ، المدرسة التأثيرية ، وبدأ « رنوار » يتألق فنيا كفنان معروف ، بعد أن تخصص فى الفن ، وأصبح هو شاغله الشاغل ، ومهنته ، وعمله الذى يحبه – ولكن ما هى المدرسة التأثيرية فى الفن التشكيلى ؟ ، وكيف تألق « رنوار » بعد ذلك ؟ ، هذا ما سنعرفه فى الفصل القادم .

* * *

فنـــان يتألـق

أثبت « رنوار » منذ بدايته الفنية ، أن له أسلوبه الخاص وفلسفته الفنية الواضحة فى الجمال ، ومع ذلك بدأ حياته محاكيًا ومقلدًا المذهب الواقعى ، الذى كان سائدًا إبان تلك الفترة التاريخية ، والذى كان يتزعمه كل من « كودبيه » و« مانيه » ، وعندما اشتد عود « رنوار » ورفاقه ، وعبروا عن أنفسهم بطريقتهم الخاصة – كانت نظرية « شيفرى » فى علم الضوء تلقى اهتمامًا كبيرًا فى الأوساط العلمية ، وتهتم هذه النظرية بتأثير الألوان الأساسية على العين إذا ما جاور بعضها البعض ، واستهوى الشباب هذا الكشف الجديد ، فانطلق « رنوار » وزملاؤه يطبقونه فنيًا فى العراء ، فى ضواحى

باريس ، فراحوا يصورون الطبيعة ويسجلون رعشة الضوء وهو يلامس الأشياء فى مختلف ساعات النهار ، ثم يعودون للاجتماع فى المساء ، فى مقهى « جيربوا » ليناقشوا آراءهم مع « بيسارو » و « سيزان » والكاتب « أميل زولا » .

كانت جماعة « التأثيريين » التى أقامت أول معارضها الجماعية سنة ١٨٧٤ ، تمثل ثورة على الفن الرسمى الذى فرضه رجال « أكاديمية الفنون الجميلة » على الحياة الفنية الفرنسية .

لقد عارض « التأثيريون » فكرة اعتماد فن التصوير الزيتى على الرسم بالخطوط الواضحة المؤكدة والمحددة للعناصر المرسومة ، وفضلوا عليها استخدام اللمسات اللونية الصافية غير الممزوجة والموضوعة على قماش اللوحة بحرية دون إخفاء هذه اللمسات أو دمجها ، تعبيرًا عن تأثرهم بالأضواء المنعكسة على العناصر التى يرسمونها ، دون تحديد للخط الخارجى المحدد لهذه العناصر ، ويتعرف المشاهد على الأشكال من خلال ألوانها وأضوائها ، وانعكاسات لون كل عنصر على العناصر المجاورة له – هذا مع عدم الاهتمام بموضوع اللوحة ، فقد اعتبر التأثيريون كل شىء فى الطبيعة يمكن أن يكون موضوعًا لفن التصوير .

فى قاموس الفنانين التشكيليين الأجانب والمصريين تشرح لنا الأستاذة « فهيمة أمين إبراهيم » المدرسة التأثيرية فى الفن التشكيلى فتقول : (التأثيرية Ipressionism هى اتجاه فن التصوير الحديث الذى ساد فى فرنسا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر « ١٨٧٠ » تقريبًا ، ثم انتشر بعد ذلك فى بلدان أخرى ، واللفظ مشتق من كلمة التأثير Ipression وهو اسم لوحة زيتية للفنان « كلود مونيه » عرضت فى باريس سنة ١٨٧٧ ،وقد ابتدع الاتجاه التأثيرى أسلوبًا للتصوير ترجع جذوره إلى الأزمنة السابقة ، ثم انتشر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وأصبح له ممثلون مشهورون مثل « جويا وكونستابل وترنر » وغيرهم ، وقد كان ظهور الاتجاه التأثيرى كرد فعل للتصوير الأكاديمى وللتصوير فى المراسم وضوئها غير الطبيعى ، ولم يكن الاتجاه التأثيرى يعتبر المنظر الطبيعى عبارة عن مجموعة من الخطوط والمساحات فى الألوان المحددة ، ولكنه ينظر إلى الطبيعة كمظهر ملون يجب أن يصور بجميع تفاصيله الدقيقة ، وعلى هذا يعتبر هذا الاتجاه نوعًا جديدًا للمذهب الطبيعى ، ولا يصور المنظر وفق بنائه الطبيعى ، ولكن يصوره كما يبدو فى أوقات التصوير ، وأهم ممثلى الاتجاه التأثيرى فى فرنسا هم :

الفنانون مونيه – مانيه – سيسلى – بيسارو – ديجا – رنوار ، وانتقل الاتجاه التأثيرى بعد ذلك إلى ألمانيا فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر) .

والسؤال الذى حير مؤرخى الحركة الفنية هو : من الذى اكتشف المدرسة التأثيرية أولاً ، كلود مونيه ، أم رنوار ؟ .

يقول الأستاذ صبحى الشارونى فى كتابه « هؤلاء الفنانون العظماء ولوحاتهم الرائعة » : (من الصعب أن نحدد اليوم هل كان « كلود مونيه » هو الذى اكتشف التأثيرية أولاً وطبقها فى لوحاته أم سبقه فى ذلك « رنوار » ؟ ، لأننا إذا قارنا بين أعمالهما خلال الفترة من عام ١٨٦٩ حتى ١٨٧٤ ، لما استطعنا تحديد أيهما أسبق من الآخر فى استخدام ألوان « قوس قزح » وحدها فى الرسم) .

وسواء كان الفنان « رنوار » هو الذى اكتشف مذهب التأثيرية ، أو الفنان « كلود مونيه » أو غيرهما ، فإننا لا نستطيع إنكار الدور الهام الذى لعبه « رنوار » فى التعبير عن هذه المدرسة بريشته فى لوحاته المختلفة ، وبصمته الواضحة فى هذا المجال ، بل تفوقه على زملائه بحكم خبرته السابقة .

وفى سنة ١٨٦٥ اشتعلت الحرب البروسية الفرنسية ، ودفعت

الوطنية « رنوار » إلى الالتحاق بالجيش للدفاع عن وطنه ، وانضم إلى إحدى فرق الخيالة فى « بوردو » حيث أبلى بلاء حسنًا ، وكان مثالاً للشجاعة والانضباط ، مما جعل رئيسه يعجب به ، ويطلب منه الاستمرار بعد الحرب فى سلك الجندية ، ويذكر الفنان الكبير حسين بيكار فى كتابه « لكل فنان قصة » الجملة التى أجاب بها الفنان « رنوار » على قائده فى الجيش ، إذْ أنها لا تخلو من معانى كثيرة – إذ قال : (لو كنت احترفت جميع الحرف فى الدنيا ، لوجدت من يشجعنى على الاستمرار فيها جميعًا) .

هذه العبارة تدل على نجاح الفنان « رنوار » فى كل عمل قام به حتى آخر لحظة فى حياته ،فهو يؤمن بالعمل وضرورته فى الحياة ،ويؤمن بالموهبة وضرورة صقلها بالعلم والدراسة ، وهو شخصية قوية تعبر كل المحن والمشاكل وتنتصر عليها ، وهو يتمتع بإرادة قوية تحقق المستحيل ، وتدفعه إلى العمل على الرغم من المرض الذى أصابه فى العشرين سنة الأخيرة ، بل تفوق على مرضه وأبدع أعمالاً فنية رائعة أدهشت النقاد ، وهذا ما سنعرض له فى فصل « بين الشلل والأمل » .

انتهت الحرب الفرنسية البروسية ، فعاد « رنوار » إلى

باريس ، وهو حزين لفقد صديقه « بازيل » فى الحرب ، وبدأ القيام مع رفاقه الفنانين برحلاتهم التقليدية إلى ضفاف البحر وشواطئ نهر السين لممارسة هوايتهم فى الرسم عن الطبيعة مباشرة ، ولكن الرفاق اختلفوا بعد ذلك فى اهتماماتهم الفنية ، فمنهم من اهتم برسم المناظر الطبيعية فقط ، ومنهم من أحب الليل وعايشه فحسب ، أما « رنوار » فكان اهتمامه بالصور الشخصية (البورتريه Portrait) .

ومع الأيام زهد « رنوار » (التأثيرية) التى استنفدت بالنسبة إليه كل أغراضها ، واختلف مع زملائه التأثيريين ، الذين غالوا فى اتجاههم لدرجة أنهم طالبوا بحرق متحف اللوفر ، وقد عارض « رنوار » ذلك بشدة .

اهتم « رنوار » فى فنه التشكيلى بمحورين رئيسين هما : الطفولة والمرأة ، الطفولة وما تعبر عنه من براءة وإشراقة واستمرار للحياة ، والمرأة وما تعبر عنه من جمال وحب وحنان ، ولم تكن الصورة هى المهمة الرئيسية عند « رنوار » ،وإنما كانت الصورة وسيلة التعبير عن بهجة الحياة وجمالها وبراءتها وسعادتها . من هنا رسم « رنوار » لوحاته .

بعد ظهور لوحة يوم صيفى Summer Afternoon التى عرضت

فى صالون باريس ولقيت إعجابًا كبيرًا ، ولوحة أصحاب السفينة The Boaring Party التى تصور جمعًا من الشابات والشبان يجلسون حول مائدة فى الهواء الطلق على ظهر سفينة ، ولوحات المقصورة La Poge ، والراقصة Dancer، والرقص فى مونمارتر Dance at Mommartre ، والرقص فى الريف ،ولاشك أن رسم الراقصات ، أو الرقص بعامة عملية ليست سهلة حتى على الرسام نفسه ، لأن الحركة تحتاج إلى دقة متناهية من الفنان حتى يشعر بها المتلقى المشاهد ، وقد كان « رنوار » ، يفضل رسم الأشياء المتحركة الإنسانية ، وهو ما يدل على موهبته الفذة وقدرته الفائقة على التعبير ، وبراعته فى الأداء مما جعله فيما بعد من أعظم الرسامين وأوفرهم نشاطًا ، ليس فى فرنسا فقط ، بل كما يقول الأستاذان سعيد جودة السحار ، وجمال قطب فى كتابهما : « أشهر الرسامين والموسيقيين العالميين » فى دنيا الفن جميعًا : (كان « رنوار » شديد الإعجاب بالحضارة الإغريقية ، التى أنزلت آلهة اليونان من السماء إلى الأرض ، وجعلت منها الفردوس الحقيقى ، وأراد أن يستكمل هذا الفردوس بأعماله التشكيلية ، سواء لوحات أو تماثيل ، ليزيد الروعة فى الأرض وينشر الجمال بين ربوعها ، من أجل

ذلك حرص على أن يكون كل شيء جميلا ، وعلى أن تكون أعماله ، ربما أكثر جمالا من الواقع الجميل نفسه ، فموضوعاته هى وجوه الأطفال البريئة ، وباقات الزهور والورود اليانعة ، والفتيات الجميلات ، العاريات أحيانًا دون ابتذال ، وحتى لوحة « النساء الغاسلات » جعل منها صورة جميلة لنسوة يقبلن على العمل فى حب وفرح وكأنهن لا يعرفن التعب ، إنه يرى كل شيء جميلا ، بل ويرى أن دور الفنان ومهمته تجميل الواقع ونشر الجمال ، وقد انتقده بعض النقاد على رأيه هذا فقال : « لابد أن نظهر الجمال فى الحياة ، لأن هناك كثيرًا من البشاعة ») .

من أجل هذا اهتم « رنوار » بأن تتفجر لوحاته بالحياة والحيوية والحركة الرشيقة ، وتتلألأ بالأضواء والألوان الباهرة المتآلفة التى تنعكس على المشاهدين بالفرحة والسرور ، فاستخدم الألوان الصافية لبناء أشكال تتميز بالليونة والبهجة ، وقد ركز على رسم الأضواء الملونة التى تشع من الأشكال دون تحديد واضح ، واقتصرت ألوانه على الأحمر والبنى والبرتقالى ، وصدق النقاد عندما قالوا : إنه نقل الفن من كهوف الخرافة إلى حدائق الألوان .

تعرف « رنوار » على مقهى (أثيناء الجديدة) فى باريس على تاجر التحف واللوحات « ديران دييل » ، وكان هذا التاجر يؤمن بأن التعبير عن الوجه الإنسانى أصعب بكثير من رسم المناظر الطبيعية ، ولما كان هذا هو محور فن « رنوار » الذى تخصص فيه ، فقد جمع حب الفن – والبورتريه بالذات – بينه كفنان والتاجر « ديران » كموزع وتاجر لوحات ، وقد أثمرت هذه الصداقة ، فتشجع الفنان على المزيد من الإبداع والإنتاج ، وقام التاجر بمهمة الدعاية له ، فبيعت لوحاته بأسعار مرتفعة .

لمع نجم « رنوار » واشتهر برسم الأشخاص ببراعة لا ينافسه فيها أحد ، حتى صار مرسمه فى حى (مونمارتر) فى باريس قبلة فاتنات المجتمع وهواة الفن الرفيع من الوجهاء والمشهورين ، ومع تخصصه فى البورتريه إلا أنه كان يحب الطبيعة ، وفى هذا قال : « إن الرسام لا يكون عظيمًا إن لم يحب المناظر الطبيعية Landscape .. » وكان يراقب المارة من نافذته بالدور الثانى ليرسمهم فى حركتهم الطبيعية ، ومن الطريف أنه كان يرسل أخاه ليستوقف المارة فى الشارع ويسألهم أسئلة وهمية لتعطيلهم حتى يملك الوقت لرسمهم وسط الزحام فى طبيعية مطلقة .

فى سن الأربعين تزوج « رنوار » ، وظل طوال حياته مخلصًا

لزوجته ، وكانت هى من جانبها تقدر موهبته وتساعده على العمل والإبداع ، ويروى لنا ابنه المؤلف المسرحى والمخرج السينمائى « جان رنوار » قصة زواج والديه فى كتابه « أبى رنوار » فيقول :

« اهتم رنوار فى حياته بأن يرسم ، ولم يكترث بشىء ، كانت الفرنكات القليلة التى تصل إلى يديه تكفى مطالبه القليلة ، فهو لم يكن يفكر فى غده ، إلى أن التقى بالفتاة التى أصبحت زوجته وهى « ألين شاريجو » وكانت تعيش مع أمها وحيدتين تكسبان قوتهما بحياكة الثياب ، كان أبى فى الأربعين من عمره ، بينما كان عمر عروسه وقتئذ ١٩ سنة ، وقد أدركت العروس بسذاجتها الريفية وقلبها البسيط أن أبى « رنوار » قد ولد ليرسم ، ولذلك كان لزامًا عليه أن يظل يرسم ، سواء كان الرسم جيدًا أو رديئًا – موفقا أو فاشلاً ، المهم ألا يكف عن الرسم ، وبعد أن تزوجا رأت أمى من الأفضل لهما أن يذهبا للحياة فى الريف فى قريتهما حيث لا يكلفهما العيش شيئًا يذكر ، وهناك يستطيع « رنوار » أن يكرس كل وقته لتجاربه ، إلا أن هذه الفكرة لم تتحقق ، كانت هناك عقبتان : الأولى أن أمها عارضت فى أن ترتبط ابنتهما برجل فقير ،

والثانية هى أن « رنوار » كان يريد البقاء فى جو باريسى – قلب المعركة ، ومع ذلك تزوجا وعاشا فى أستوديو فى شارع سان جورج وأقامت معهما جدتى ، مدام شاريجو ، تساعد ابنتها فى إدارة شئون البيت ، إذ أن أمى لم تكن فى ذلك الحين تتقن طهو الطعام والأعمال المنزلية الأخرى ، إلا أنها أصبحت فيما بعد ربة بيت ممتازة ، وكانت جدتى فى بداية الأمر لطيفة مع أبى ، لكنها بعد فترة ، بدأت تلقى تلميحات عن قلة دخله ، وكانت أيضًا تنتقد بعض تصرفاته كفنان ، فمثلا كان من عادات أبى عندما تخطر له فكرة أن ينهض من مقعده تاركًا مائدة الطعام كى يسجل فكرته بقلم فحم ، فكانت جدتى تقول له عندما يعود إلى مقعده : « أهكذا يتصرف الرجل المهذب ؟ » ، ولكن ابنتها لم تكن تترك مثل هذه المواقف دون أن تتدخل فيها ، فكانت تنظر إلى جدتى نظرة تهديد صارمة وتومئ إلى باب المطبخ ، فتقوم السيدة العجوز على الفور ، وتأخذ معها طعامها لتتم وجبتها وحدها فى المطبخ ، ولم يتنبه « رنوار » إلى مثل هذ الأمور البسيطة ، وكانت أمى ترضى والدتها فيما بعد ، بأن تشترى لها بعض الحلوى التى تفضلها ، وروت لى جدتى بعد ذلك أنها أصبحت

شيئًا فشيئًا تتقبل أسلوب أبى ، فقد بدأت تفهم تدريجيًّا طبيعته وأخلاقه » .

هكذا كان الفنان « رنوار » فقيرًا بسيطًا ، حتى أنه رفض الزواج ، ثم عانى من حماته بعد الزواج لبساطته وعشقه لفنه ، ولكن زوجته عرفته جيدًا ، واكتشفت فيه الفنان الكبير ، الذى يعيش من أجل فنه ، الفقير ماديًا الغنى فنيًا ، صاحب الشخصية القوية والعزيمة الصلبة ، والذى ينتظر المستقبل العظيم المرموق ، فوقفت بجانبه وشحذت همته ، وساعدته على الإبداع والتألق ، ألسنا نقول : إن كل عظيم وراءه امرأة ؟ .

ويبدو أن « رنوار » أراد أن يصحب زوجته الشابة « ألين » فى رحلة لقضاء شهر العسل خارج فرنسا ، ولأنه فنان يعيش لفنه وإبداعه ، ويريد أن يستفيد من كل لحظة فى حياته ، فقد قرر أن يسافر إلى شمال أفريقيا وأوربا فى رحلة طويلة سنة ١٨٨١ ، بدأها بالجزائر ، ثم إيطاليا وهولندا وأسبانيا وألمانيا ، كان شاغله الشاغل زيارة متاحف هذه الدول ، والتعرف على حركة الفن التشكيلى فيها ، ففى الجزائر تأثر بسحر الشرق وحاول محاكاته ، بل وأسس ما يطلق عليه الفن الشرقى Orientalism ، وكان من أوائل الفنانين الذين استخدموه فى

لوحات تعبر عن جماله وسحره ، كذلك اشترك معه فى هذا المجال كل من أنجر ، وديلاكروا ، وجيروم ، ومولر ، ولويس جروز ، وماتيس وغيرهم .

ومن لوحات الفنان « رنوار » الرائعة الشرقية لوحة (الطفلة الصغيرة مع الصقر) والتى كانت مثار تحليل وتعليق النقاد والمؤرخين ، فقد تبارى كل منهم فى إثبات أو التشكيك فى صحة تاريخ رسم اللوحة (١٨٨١ – ١٨٨٢) ، وقد عاد هذا الخلاف بين النقاد والمؤرخين بالفائدة على تاريخ حياة « رنوار » وأهميته الفنية ، وأضافت إلى المكتبة العالمية أبحاثا ووثائق لها أهميتها فى هذا المجال .

كذلك استفاد « رنوار » من رحلاته الأخرى وبخاصة فى إيطاليا ، حيث درس أعمال فنانى عصر النهضة رافاييل وفلاسكيند وغيرهما ، وفى روما العاصمة رسم زوجته عدة مرات وهى عارية ، وفى باليرمو تعرف على الموسيقار فاجنر ، ورسم له صورة فى حوالى ٢٥ دقيقة ، ولاشك أن هذه الرحلة الطويلة أضافت لـ « رنوار » الكثير فى مجاله الفنى ، وقد وضح ذلك فى أعماله بعد ذلك .

وعاد « رنوار » إلى باريس ليستكمل مشواره الفنى مع

الجمال ، وهو أكثر عشقًا لفنه ، وأكثر خبرة بفضل المتاحف العديدة التى زارها ، والتى أضافت رؤية جديدة له ، وهو الفنان الذى يبحث دائمًا عن مزيد من الخبرة والعلم والحقائق فى الفن ، وأخذ يبدع ويرسم ويتألق ، وفى سنة ١٨٨٣ أقام معرضًا شاملاً لأعماله ضم سبعين لوحة من إبداعاته ، وذاع صيته ، وتوطدت مكانته ، ونظر إليه الجميع بإعجاب واحترام ، واستطاع أن يبيع لوحاته بسعر مائة فرنك للوحة الواحدة ، وهو مبلغ مناسب إبان تلك الفترة التاريخية ، مما ساعد على تشجيع « رنوار » على المزيد من العمل والإنتاج ، بل دفعه إلى مرحلة جديدة فى فنه ، هى المرحلة الجافة ، وفيها حاول اتباع تعاليم رائد الفن الكلاسيكى القديم « أنجر » ، والتى تعطى الأولوية للخطوط بدلاً من الألوان فى فن التصوير ، وقد امتدت هذه المرحلة خمس سنوات ، تميزت لوحاته فيها بتحديد الأشكال وتجسيمها وتدعيم بنائها ، على غير عادة « رنوار » فى لوحاته التأثيرية التى تظهر فيها الأشكال لينة رقيقة وسط غلالة من الألوان الزخرفية الباهتة .

ولم تستمر هذه المرحلة سوى خمس سنوات كما ذكرنا ، عاد بعدها « رنوار » سنة ١٨٩٠ إلى تأثيريته السابقة ، وتميزت

لوحات هذه المرحلة الأخيرة بأن معظمها يصور أجسام النساء ، وتبدو الألوان وكأنها تتفجر بالأنوثة ، وقد سئل « رنوار » عن سبب اهتمامه بتصوير النساء فأجاب : « أنا أعشق النساء ، كم يبدو الحديث معهن سهلاً ، وتبدو الحياة بسيطة وغير معقدة ، إنهن يعطين الأشياء قدرها وقيمتها الحقيقية » .

كان حلم حياة « رنوار » أن يحتفظ متحف « اللوفر » فى باريس بإحدى لوحاته ، ومع تألقه وشهرته وكثرة المعجبين به ، لم يتحقق هذا الحلم الجميل ، والرغبة المتأججة ، إلا عن طريق صديقه « جوستاف كابيوت » الرجل الثرى الذى يهوى الرسم ، ويتمنى أن يكون رسامًا كبيرًا مشهورًا ، مع موهبته المتواضعة ، وانضم إلى جماعة الرسامين التأثيريين ليزداد شهرة ، وكان كريمًا مع زملائه يشترى لوحاتهم ، ومن هنا استطاع أن يقتنى أثمن مجموعة من لوحات زملائه وأصدقائه الفنانين ، ومات « جوستاف كابيوت » سنة ١٨٩٤ وطلب من « رنوار » أن يكون مشرفًا على تنفيذ وصيته ، أما وصيته فهى ترك مجموعة لوحاته للحكومة ، وكان يدرك ببديهيته أن أحد الموظفين لن يجرؤ على رفض هذه الهدية ، أو عدم تنفيذ الوصية ، وبهذا يخفف من المعارضة الرسمية للمدرسة التأثيرية ،

وحاول « رنوار » تنفيذ الوصية ، فذهب إلى موظف كبير بإدارة الفنون الجميلة ، وكان رجلاً طيبًا ، ولكنه متردد ، وبعد أن تأمل اللوحات وفحصها قال : « هذه فكرة شيطانية ، ما الذى جعل صديقك يفكر فى وضعنا فى هذا الموقف الحرج ؟ ، ضع نفسك مكانى يا سيد رنوار ، لو أننا قبلنا هذه اللوحات ، سنواجه عاصفة عاتية ، ولو رفضناها فسيثور علينا كل الذين يشجعون الموجة الجديدة ، أرجوك ألا تسىء فهمى يا سيد « رنوار » ، إننى لا أعارض الاتجاهات الجديدة ، فإنى أومن بالتقدم ، ثم إننى اشتراكى وأنت تفهم معنى هذه الكلمة .

وهنا طلب « رنوار » من الموظف أن يترك النظريات جانبًا ، وأن ينظر للأمر نظرة واقعية ، فأعاد الموظف بفحص اللوحات ، واستبعد بعضها ، واضطر إلى قبول أعمال مونيه وديجا ، كما أخذ بعض أعمال ولوحات « رنوار » ، والطريف أن الموظف الكبير هذا عندما تفحص لوحات « سيزان » صرخ قائلاً لرنوار : « لا – لا تحاول أن تقول لى إن سيزان هذا فنان ! .. » .

ورفض الموظف قبول ثلثى لوحات هذه المجموعة الفريدة ،

وهى من أثمن المجموعات الفنية فى العالم ، ثم أرسل اللوحات الباقية إلى متحف لوكسمبورج ، وبعد سنوات نقلت إلى متحف اللوفر ، وهكذا حقق « رنوار » هدفًا عزيزًا عليه ، بل حقق حلم حياته فى أن يرى إحدى لوحاته فى أهم متاحف باريس متحف اللوفر Louvre، وهو من الفنانين القلائل الذين تمتعوا بهذا النجاح فى حياته .

أصيب « رنوار » فى العشرين سنة الأخيرة من حياته بمرض أقعده وأنهك قواه ، ومع ذلك ظل يعمل ويبدع ولم يستسلم لليأس ، بل هزم اليأس وعاش بالأمل على الرغم من الآلام التى كان يعانيها ، وعاش يرسم ويبدع واستطاع أن يخلد اسمه بأعماله التى مازالت تبهر وتسعد وتدفع الفرجة فى قلوب المشاهدين ، ومع أنه رحل عن عالمنا فى نهاية عام ١٩١٩ ، إلا أن أعماله مازالت تنافس الفنانين الذين عاشوا بعده ، وحتى الآن ، ففى سنة ١٩٨٦ بلغ عدد زوار معرض « رنوار » المقام فى متحف الفن الحديث بمدينة بوسطن الأمريكية خمسمائة ألف زائر ، واستمر إقامته ثلاثة أشهر ، كما بلغ دخله تسعة ملايين دولار .

وفى عام ١٩٩٠ استطاع فن « رنوار » أن ينافس فن الفنان

المعروف « بيكاسو » (١٨٨١ – ١٩٧٣) فى مزاد (صالة سوثى) ففى حين حققت قطعة من النحت « لبيكاسو » يرجع تاريخها إلى سنة ١٩١٤ ثمنا قدره ٢,٥٣ مليون دولار فقط ، حققت لوحة « رنوار » وعنوانها (فنجان الشيكولاته) والتى رسمها سنة ١٨٧٨ رقما قياسيًا مرتفعًا فى المبيعات الفنية ، فقد وصل ثمنها ١٨,١٥ مليون دولار .

وفى سنة ١٩٩٣ وصل ثمن لوحة « رنوار » (الفتاة التى تحمل سلة الزهور) فى مزاد قاعة كريستى بلندن إلى ٨,٥ مليون دولار .

ولم يقتصر الأمر على شراء لوحات « رنوار » بأعلى الأسعار ، بل إن محبى فنه ، الذين لا يملكون الثروات اضطروا إلى سرقة بعض لوحاته من المتاحف ، كما حدث فى سنة ١٩٩١ ، إذ سرقت لوحة (الفتيات فى الريف) والتى رسمها « رنوار » وهو يعانى من المرض سنة ١٩٠٦ ، وكانت اللوحة معروضة ضمن ٢٨٠ لوحة أخرى فى المتحف الفرنسى (بانبول سوريز) بجنوب فرنسا ، ومن عجب أن سارق اللوحة سرقها أثناء ساعات الزيارة الرسمية للمتحف ، أى فى وضح النهار ، ولا يعرف بالضبط إذا كان اللص من المعجبين بأعمال « رنوار »

والمتذوقين للفن ، أم أنه سرقها ليبيعها ويكسب من ورائها حوالى مليون دولار ، وهو ثمنها ! .

ولكن ما هو المرض الذى أصاب « رنوار » فى العشرين سنة الأخيرة وجعله يتألم ويتوجع وهو يرسم ، والذى لم يستطع الانتصار عليه ، بل انتصر « رنوار » بفضل حب الحياة والأمل المتدفق فى عروقه ، والذى جعله يرسم ويبدع حتى آخر يوم فى حياته ؟ هذا ما سنعرفه من الفصل القادم .

* * *

بين الشلل والأمل

عاش « رنوار » حياته شبابًا على طول ، عاش بين المرح وصنع الجمال ، لم يعرف له عملاً طوال حياته إلا الرسم والنحت والإبداع ، ولم يكن يعمل لمجرد الكسب والبحث عن لقمة العيش ، إنما كان يعمل لأنه لا يستطيع أن يعيش دون عمل ، ولا يستطيع أن يعمل إلا الفن ، فقد ولد ليكون فنانًا مبدعًا محبًّا للجمال ، مؤمنًا أن دوره فى الحياة هو نشر الجمال بصور مختلفة ، فالحياة حلوة على الرغم من كل شىء ، وعلينا أن نزيد حلاوتها بنشر الجمال وتذوقه .

وظل « رنوار » يبدع طوال طفولته وشبابه ، وعندما اقترب من خريف العمر وهو على مشارف الخمسينيات ، كان يقود

دراجته كعادته كل يوم ، كنوع من الرياضة ، وكان اليوم ممطرًا ، اختل توازنه وسقط على الأرض ، ووقع على بعض الأحجار مما أدى إلى كسر ذراعه اليمنى ، وهى التى يرسم ويبدع بها ، وأمر الطبيب بوضع ذراعه فى الجبس ، ونصحه بألا يعود إلى ركوب الدراجة مرة أخرى .

لم ييأس « رنوار » من كسر ذراعه التى يرسم بها ، بل بدأ يتدرب على الرسم بذراعه اليسرى ، فهو لا يستطيع أن يحيا دون أن يرسم ، وساعدته زوجته فى مسح الأجزاء التى لا تعجبه فى اللوحة ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يحتاج فيها لمن يساعده ، وفى مدة قصيرة استطاع أن يرسم بذراعه اليسرى ، ويشبع هوايته ونهمه فى الرسم والإبداع ونشر الجمال ، وعندما أزال الطبيب الجبس من يده اليمنى ، كان « رنوار » يتقن الرسم بيده اليسرى ، وبذلك حول الحادث إلى فائدة ، وتجربة ناجحة فى أن يرسم بكلتا يديه .

لم يمهله القدر بأن يتمتع بصحته وحيويته الكاملة ، فأصيب فى سنة ١٨٩٩ بمرض الروماتيزم ، ثم التهاب المفاصل ، مما أدى إلى عدم قدرته على تحريك يده اليمنى ، ولم ينجح العلاج فى شفاء « رنوار » ، وكذلك لم ينجح المرض فى دفع اليأس إلى

نفسه ، بل زاد حبه للحياة وتعطشه لنشر الجمال ، وآمن بأن العمل والرسم خير وسيلة للهروب من المرض والألم والوجع والشلل ، إلى عالمه الجميل فى التصوير والإبداع والجمال والحياة المنتصرة .

هذه إحدى فضائل العباقرة والعظماء ، إنهم دائما يرفضون اليأس ، يعيشون بالأمل ، لا يعترفون بالإحباط أو الفشل ، يكررون التجربة مرة ومرات حتى ينجحوا ، فالحياة محاولات مستمرة للنجاح ، وإذا لم تنجح فى البداية فستنجح فى النهاية إذا صبرت ، ورفضت اليأس ، وتمسكت بالأمل ، وما الحظ إلا نوع من الصبر والإصرار على النجاح والاجتهاد والعمل المتواصل .

والفنان المبدع « أوجست رنوار » من هؤلاء العباقرة العظماء ، الذين عاشوا بالأمل ، فلم يستطع المرض أن يبعده عن الفن ، ولم يستطع الشلل أن يمنعه من القبض على فرشاته وإبداع الجمال ، بل تحدى المرض حتى وهو جالس على مقعده المتحرك ، ولم يكن فقيرًا يحتاج للعمل من أجل لقمة العيش ، بل كان ميسورًا استطاع أن يبيع كل لوحاته وأعماله بأثمان مرتفعة ، جعلته يعيش فى رغد من العيش ، ومع ذلك كان يرسم لأنه لا يستطيع أن

يعيش دون أن يرسم ويبدع ، ودفعه تحدى المرض والشلل إلى مرحلة جديدة فى حياته الفنية ، وهى مرحلة التكتيل ؛ وهى مرحلة تتميز بالقوة والعنفوان ، ولا تخلو من المبالغة ، فصور الأطفال والنساء منتفخى الأوداج والنهود والأرداف ، ومن الطريف أنه كان يشترط على من يلتحقن بخدمته أن يكن ممتلئات الجسم ناعمات البشرة لكى يستغلهن – إلى جانب أعمال البيت وتربية الأطفال – كموديلات للوحاته .

ففى سنة ١٩٠٣ اشترى « رنوار » بيتًا فى مدينة « كان » فى جنوب فرنسا ، كان يترك باريس ويقيم فيه كلما شعر بحاجته إلى الدفء والنقاهة والراحة ، وتذكر معظم المراجع عن « رنوار » أنه كان يرسم فى سنواته الأخيرة ، بعد أن هاجمه المرض وتملك منه ،كان يرسم والفرشاة مربوطة فى يده ، لكن ابنه الكبير المخرج السينمائى « جان رنوار » يصحح لنا هذه المعلومة فيقول فى كتابه عن والده :

« الحقيقة أن جلد أبى أصبح رقيقًا جدًّا وحساسًا للغاية إلى درجة أن مجرد احتكاك يده بالفرشاة كان يجرح أصبعه ، ولكى يتغلب على هذه الصعوبة كان يضع قطعًا صغيرة من القماش بين أصابعه ، والحقيقة أيضًا هى أن يد « رنوار »

ظلت حتى آخر لحظة فى حياته لا تقل ثباتًا عن يد رسام شاب ، كما أن بصره ظل قويًّا كما كان ، بل إننا كنا أحيانًا نستعمل عدسة مكبرة لكى نتأمل تفاصيل لوحاته » .

كان « رنوار » يزداد إقبالا على الرسم كلما زادت آلامه ، فقد كانت لديه قدرة عجيبة على تحمل الألم ، والعمل المتواصل ، وكان الرسم ينسيه متاعبه وآلامه ، ويقال إن صديقه الفنان « هنرى ماتيس » زاره فى أحد الأيام وجلس معه يخفف عنه آثار المرض ، وأشفق عليه وهو يرسم ويتألم فسأله : « لماذا تصر على الاستمرار فى الرسم على حساب صحتك ، إننى أراك تتعذب مع كل حركة يأتى بها أصبعك ؟ » .

أجاب « رنوار » : « حقيقة أننى أتألم يا صديقى ، ولكن الألم لا يلبث أن يزول ، بينما يبقى الجمال حيًّا لا يموت أبدًا – عزائى الوحيد أننى أشارك فى صنع هذا الجمال » .

ومع اهتمام « رنوار » فى العشرين سنة الأخيرة من عمره – والتى عانى فيها من المرض والألم – بالتكتيل أو التضخيم ، عاد إلى الفن الكلاسيكى القديم ، ولم يرسم وهو مشلول لا يتحرك إلا عن طريق المقعد المتحرك وحسب ، بل اهتم بالنحت أيضًا وصمم « اسكتش » بالألوان المائية

لفينوس – ربة الجمال عند الرومان وهى نفسها أفروديت عند اليونان – ثم قام بتصميم التمثال ، لكنَّ مرضه منعه من الوقوف حتى يضع اللمسات الأخيرة للتمثال ، فأمسك بعصا وطلب من مساعده النحات الشاب جينو Gino أن يقوم بتسوية بعض أجزاء من التمثال وتعديل بعض الخطوط مشيرًا له بالعصا على الأماكن والأجزاء التى تحتاج إلى تعديل ، سواء أكان التعديل زيادة الطين فى انحناءات معينة أو تقليلها وترقيقها فى أجزاء أخرى حتى تعطى الشكل الذى يريده بالضبط .

والمشاهد للتمثالين اللذين أبدعهما « رنوار » وهو مريض مشلول ، لن يقتنع بأن مبدعهما صنعهما بنفسه وهو مريض يتألم لا يتحرك – أما التمثالان فهما تمثال فينوس ، وتمثال الممرضة .

كانت آخر موديل رسمها « رنوار » فتاة فى السادسة عشرة من عمرها تدعى « أندرية » جميلة ممتلئة حمراء الشعر ، تزوجها ابنه « جان » المخرج السينمائى بعد ذلك – كانت « أندرية » تداعب « رنوار » وتغنى له ، وتروى له قصصا وحكايات عن طفولتها ، فتخفف عنه آلام المرض ، وتدخل السعادة إلى نفسه ، وتدفعه إلى حب الحياة والاستمرار فى الرسم والإبداع .

وفى شتاء سنة ١٩١٩ اشتد المرض على « رنوار » ، فلم يستطع أن يغادر حجرته ، وطلب صندوق الألوان وفرش الرسم ، وأمسك بالفرشاة ورسم لوحة لمجموعة من أزهار الأنيمون ، ونسى آلامه وأوجاعه وهو يرسم ، وبعد أن انتهى من رسم اللوحة طلب من أحد القريبين منه أن يأخذ الفرشاة من بين أصابعه ، ثم نظر إلى اللوحة وأطال التأمل فيها وقال : « أعتقد أننى بدأت الآن أفهم شيئًا من هذا الفن – فن الرسم » .

هكذا رحل « رنوار » فى اليوم الذى انتهى فيه من رسم آخر لوحاته ، وهو اليوم الثالث من شهر ديسمبر سنة ١٩١٩ ، رحل وهو فى قمة المجد ، وقمة التواضع ، ولعل جملته الأخيرة تعبر عن ذلك ، والواقع أنه كان دائمًا متواضعًا ، يحترم زملاءه ، ويقدر كل عمل فنى مهما بلغت بساطته ، فهو فنان يعرف قيمة الفن ، ويعرف معاناة الفنان حتى ينتهى من إبداعه الفنى ، فنراه يقول معلقًا على لوحة زميله الفنان الأسبانى : « فرانشيسكوجويا » المسماة (عائلة تشارلز الرابع) : « إن الملك يبدو مثل تاجر الخنازير ، أما الملكة فتبدو وكأنها محدثة وكميات الماس تتلألأ فوقها فى جمال أخاذ ، إن أحدًا لم يرسم الماس مثلما فعل جويا » .

وكان « رنوار » أيضًا موضوعيًّا فى نقده ، ويتضح ذلك من تعليقه على لوحة (مرجريتا الصغيرة Infanta Margrita) للفنان « فيلا زكويز » : « إن كل ملكته فى الفن تكاد تتوسط تلك الفيونكة البمبى الصغيرة فى اللوحة ، فالجمال كله يشع من العيون والبشرة المحيطة بالوجنتين ، ولكن ليس هناك أية آثار للوجدان والعاطفة » .

وبعد رحيل « رنوار » أصيب محبو الجمال وعشاق الفن التشكيلى ، والنقاد بصدمة عنيفة ، فقد كان « رنوار » يملأ الدنيا بالجمال والمرح والحب ، والتمسك بالأمل مهما أوجعته آلام المرض ، فقد كانت رسالته نشر الجمال حتى تصبح الحياة جميلة فى نظر كل الناس ،وقال نقاد فرنسا بعد رحيله : « بوفاة « رنوار » تبدو الدنيا أمامنا ، كما لو كانت الشمس قد غابت عن سمائنا ، إلى الأبد ، ولكن لوحاته ستبقى دائما كنسمات منعشة تنطق بما فى الحياة من خير وجمال » .

عاش « رنوار » خلال العشرين سنة الأخيرة من حياته ، بين الشلل والأمل ، يقعده الشلل فيثور عليه ويمسك بفرشاته ويبدع الجمال ، تزداد آلامه فينهمك فى فنه ضاربًا عرض الحائط بها ، تنتصر عليه الآلام أحيانًا فيذهب إلى بيته فى

« كان » فى الجنوب حيث الدفء والهدوء ، ثم سرعان ما يعود إلى باريس ، إلى الألوان والرسم والنحت ، إلى عشقه الذى عاش له ، فأبدع لوحات وتماثيل مازالت تتحدى الزمان وتسعد وتبهج وتسر من يشاهدها ، وتدفعه دفعًا لحب الحياة وتذوق الجمال ، كان رسول الفن والجمال ، يجعل الألوان تغنى وتبتهج ، يرسم الفتيات الجميلات بألوان جلدهن المشرب بالحمرة والبياض ، فيجعل المشاهد يتيه أمام لوحاته وينسى نفسه ، ويقضى الساعات أمام هذا العمل المعجز الخلاق .

وانتصر « رنوار » على المرض ، فأبدع وأنجز الكثير خلال سنواته الأخيرة ، وحصل – وهو يعانى من المرض – على وسام « الليجون دنير » ، وكانت حياته ملحمة من العمل والأمل والجمال .

* * *

لوحة الفتاة « البرتينا » فى حالة تأمل

بورتريه زيتى مقاس ٦٥ × ٥٤ سم رسمت سنة ١٨٩٥
وموجودة بمتحف طوكيو

لوحة « عازفة القيثارة » رسمت سنة ١٨٩٧
مقاس ٨١ × ٦٥ سم

بورتريه لفتاة جميلة

لوحة لحبيبين يتراقصان رسمت سنة ١٨٨٣ مقاس ١٣٠ × ٩٠ سم
وهي موجودة بمتحف اللوفر بباريس

رقم الإيداع	١٩٩٦/١٠٦٦٤
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5322-7

٧/٩٥/١٥٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

عظماء عاشوا بالأمل

* نماذج من العظماء العباقرة الذين فقدوا واحدة أو أكثر من حواسهم .. لكنهم ضربوا المثل فى التمسك بالأمل .. وتحدى هذا الفقد .. والإصرار المتميز .. ربما أكثر من الأصحاء .

١ – توماس أديسون
٢ – أبو العلاء المعرى
٣ – فرانكلين رزوفلت
٤ – محمود أبو الوفـا
٥ – هيلين كيلر
٦ – صبحى الجيار
٧ – الجـاحظ
٨ – حسان بن ثابت
٩ – اليزابيث براوننج
١٠ – لويس بريل
١١ – عبد الرحمن بن عوف
١٢ – طه حسين
١٣ – حسين القبانى
١٤ – بتهوفن
١٥ – موسى بن نصير
١٦ – أوجست رِنُوار
١٧ – تولوز لوتريك

٨٢٣٣٨٨

دار المعارف